بسم الله الرحمن الرحيم

التأمل
لدى الشاعر الغريد
" حسن كامل الصيرفى "

تأليف
دكتورة / فيحاء إبراهيم علي
مدرس الأدب والنقد
بجامعة الأزهر

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

التأمل لدى الشاعر الغريد
" حسن كامل الصيرفى "

من حسن طالع الشعر العربى ، أنه ظل يظفر بإبداع كوكبة من جمعية أبولو الشعرية ، التى أنشأها الشاعر الراحل "أحمد أبو شادى" عام ١٩٣٢ مسندا رئاستها إلى أمير الشعراء " أحمد شوقى " ثم شاعر القطرين " خليل مطران " .

وفى الطليعة الملحوظة من هؤلاء الشعراء ، الشاعر الكبير الأستاذ " حسن كامل الصيرفى " الذى كان عضوا بمجلس إدارة أبولو ، وظل يمدها بغزير إنتاجه طوال سنوات إصدارها وكذلك قصائده الوجدانية الرقيقة بمجلة الثقافة منذ صدورها فى أكتوبر عام ١٩٧٣ حتى توقفت عن الصدور وحتى رحيله كان يطالعنا بين الحين والحين بقصائده فى بعض المجلات والجرائد اليومية .

وهذا يدل على خصوصية شاعريته لاستمرارها فى التدفق والعطاء زهاء نصف قرن من الزمان أو يزيد . وليس معنى ذلك أن الشاعر "الصيرفى " قد بدأ يقرض الشعر فى عام ١٩٣٢ ـ عام إصدار مجلة (أبولو) بل إن البداية على غالب الظن تعود إلى قبل ذلك حينما قام بنشر بواكيره الشعرية بمجلة " العصور" التى كان يصدرها الأستاذ " إسماعيل مظهر " ثم مجلة المقتطف فى أوائل الثلاثينيات بالإضافة إلى تحرير باب الكتب الجديدة ، ناقدا أو معرفا [1] وإذا أردنا أن نتعرف رحلة حياة " الصيرفى " نجد أنه ولد بدمياط فى السادس من سبتمبر عام ١٩٠٨ وتلقى دراسته الابتدائية والثانوية بها . وحالت ظروف قاهرة دون إتمامه مرحلة التعليم الجامعى إلا أن ذلك لم يفت فى عضده ولم يقعد به عن مواصلة الاطلاع والتثقيف الذاتى فقد انكب بعد

ذلك على أمهات الكتب ودواوين صفوة شعراء العربية فى شتى عصورها فاستظهر الكثير من شواردها وأوابدها ووقف طويلا عند " البحترى " حيث حقق ديوانه تحقيقا علميا بمنهج خاص [٢] ، ألزم نفسه به وقد نشرته دار المعارف .

ولعل التصاقه الحميم " بالبحترى " يفسر السر فى شيوع الموسيقى الحلوة المنسابة فى عذوبة فى ثنايا قصائده بغزارة وتدفق بالإضافة إلى تجديده الذى عبر عنه فى دراسته المطولة التى ذيل بها ديوان (أطياف الربيع) للدكتور " أحمد زكى أبو شادى " بقوله :

" خطا الشعر خطواته الأولى نحو التجديد ، نحو الخلاص من القافية المطولة والبحث عن المعنى قبل اللفظ ونحو الخروج عن دائرة المديح ، والغزل المصطنع ، والى عالم النفس (التأمل) وكنهها المترامى الأطراف".

ولننظر إلى قوله فى تلك اللوحة البديعة بتشكيلاتها الموسيقية الرفيعة ، النابضة بالإيقاع والإيحاء والتأمل فى وصف (شمس الأصيل) من قصيدة (جفاء الطبيعة). [٣]

الشمس تنزل فى الغروب وقد تورد خدها
لتقبل الأفق البعيد وقد تسعر وجدها
تخفى الأسى خلف النخيل مثل ابتسامات العليل
حتى إذا احتجبت تما ما خلف أستار الأفق
وتراكضت زمر النها ر وأسرعت زمر الشفق
نزل المساء برجله وجرى الظلام بخيله

وكذلك قوله متأملا فى عذوبة آسرة :

٤

مجلى من نور لم أبلغ مطالعه أنى اتجهت ولم أدرك تناهيه
النور يبسط نحوى كل راحتـه ويملأ النفس مما فى أياديه

وعن تجديده الشعرى يقول " أبو شادى " :

ما يبالى بزخرف فى نظام أو يغالى برونق فى عبارة

وقد التحق " الصيرفى " فى مستهل حياته العملية بوظيفة بوزارة الزراعة ثم تركها إلى العمل بمجلس النواب (مجلس الأمة فيما بعد ـ مجلس الشعب الأن) إلى أن عين بعد ذلك مديرا لادارة الصحافة به حتى تقاعد عام ١٩٦٨، ولم ينقطع طوال مدة عمله عن مواصلة الشعر والتغريد فقد كانت لديه طاقة ابداعية كبيرة جعلته يسهم فى تحرير العديد من المجلات الأدبية وقد انتدبته وزارة الإرشاد القومى (الثقافة حاليا) لإخراج مجلة (المجلة) التى تولى سكرتارية تحريرها وكان يتولى رئاسة التحرير الدكاترة : " محمد عوض محمد " و " حسين فوزى " و " على الراعى " ، فالأستاذ " يحيى حقى " وبعد توقف مجلة المجلة عن الصدور ، تفرغ لتحرير مجلة (الكتاب العربى) التى أصدرتها مؤسسة الثقافة بوزارة الثقافة ثم تركها ليتفرغ بعد ذلك لخدمة التراث العربى فى مشروع عهد به إلى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ثم اختير عضو بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وعضو بمجمع اللغة العربية بدمشق وقد وفق خلال جولاته فى عالم الفكر والأدب إلى إصدار آثار نقدية ممتازة منها كتاب (حافظ وشوقى) الذى يوازن بين الشاعرين الكبيرين وقد نشره فصولا بمجلة المقتطف ، ثم جمع وصدر كتابا عام ١٩٤٨ وأعيد طبعه عام ١٩٤٩ .

وكان من ثمرة توفره على خدمة التراث العربى نشره لطائف المعارف " للثعالبى " وطيف الخيال " للشريف الرضى " وديوان " عمر بن قمينة " بالإضافة الى تحقيق ديوان " البحترى " الذى سبقت الإشارة إليه ومن حصاد إبداعه الشعرى دواوين :

" قطرات الندى " ، و" الألحان الضائعة " ، و" الشروق " ، و" صدى ونور ودموع " وهو فى حقيقته حصيلة ثلاثة دواوين تحمل عناوين : " رجع الصدى " ، و " حول النور " ، و " دموع وأزهار " و دواوين مثل " نغمات ونسمات " و" عودة الوحى " ، و" همسة العطر للنسيم " ، و" نوافذ الضياء " ، و" النبع " ، و" صلواتى أنا " و " ورقات متفرقات" و" زاد المسافر " ، و" زهرات لا تذبل " ، وله قصيدة طويلة بديعة تحمل عنوان (شهر زاد) .

والذى يطالع شعر " الصيرفى " يرى أنه أطال التأمل فى أسرار الحياة والكون ، وأن التأمل قد اتخذ عنده طرقا كانت محاور رئيسية دار عليها شعره فى هذا السبيل منها:

التأمل المجرد والتأمل المشوب بالفلسفة وروحها العلمية ومنها التأمل الذى تدفع إليه الحياة المتصوفة والتصوف وثيق الصلة بالفلسفة والفلسفة نوع من أنواع التأمل .

كما أن شعره التأملى قد كثر كثرة ملحوظة والذى يطالع نتاجه الشعرى يدرك سيطرة تلك النزعة على جل هذا النتاج . لقد عاش " الصيرفى " تحكمه بيئة محافظة ، تنظر إلى الأدباء والشعراء نظرة بعيدة عن الجد ، وتتولى فيه الأمر حكومة استبدادية مطلقة وذلك منذ بداية عام ١٩٣٠[٤] فكان لا مفر له ولأصدقائه من شعراء أبولو من الهروب من هذا الواقع الاجتماعى المحافظ ، والواقع السياسى الاستبدادى إلى دنيا الأحلام والوهم والتهويم فيما وراء الطبيعة ، فبعضهم هرب إلى دنيا الطبيعة وبعضهم هرب إلى نفسه وعاش معها وبعضهم هرب إلى الرغبة الجامحة . أما " الصيرفى " فقد هرب إلى التأمل والحلم والرؤى لبناء فردوس مصطنع وهمى فدارت تجاربه حول تأملاته الباطنية النابعة من القلب ، كما دارت حول تأملاته المنبثقة مادتها من مظاهر الدنيا الخارجية ، وسلبيات أحداث المجتمع .

٦

وموضوع التأمل هو مضمون الشعور ذلك المضمون المتوحد داخل نفسية الشاعر والذى يتميز بدرجة كبيرة من عدة تراكيب فلسفية . وقبل أن أعرض للنزعة التأملية فى شعر " الصيرفى " ينبغى أن أشير إلى أن الفلسفة بروحها العلمية وقواعدها الجافة لم تستطع أن تقهر روح الشاعر المتفنن بل ظلت روحه الشاعرة فى رحاب بعيدة عالية من الإبداع ، تلمع خلف ضباب الفلسفة لتظهر لنا جمال شعره وبهاءه فأشعاره التأملية المشوبة بالفلسفة يغلب عليها الوضوح والخصوبة والبهاء (٥) وكثيرا ما اختلطت فى شعره النظرات المجردة بالنظرات التأملية المشوبة بالفلسفة حينا وبالتصوف حينا آخر ولكن فى انسجام وتآلف .

وعند التحدث عن التأمل فى شعر " الصيرفى " لا بد من الوقوف على شعر الطبيعة لديه لما له فيه من فضل ، حيث فسر مرائيها ومشاهدها تفسيرا تأمليا روحيا عذبا إذ كان من أبرز سماته الاندماج فى الطبيعة شأنه فى ذلك شأن شعراء أبولّو الذين اندمجوا فى الطبيعة وافنوا نفوسهم فيها وشعر الطبيعة كثير فى دواوينه وقصائده التى تعبر عن فنائه فيها والتحدث عن آماله وآلامه من خلالها فهو يتحدث عن ذاته من خلال مرائيها ، لقد فجرت الطبيعة فى نفس هذا الشاعر حشدا هائلا من الأفكار والنظرات التى تغلفها روح التأمل والاستبطان الذاتى النفسى البعيد .

والطبيعة فيما يبدو هى التى خلقت من " الصيرفى " ذلك المفكر الشاعر أو الشاعر المتأمل ولقد وصل تأمله وتفكره وتدبره فى أسرار الطبيعة والحياة والكون إلى الدرجة التى أنطق فيها كل شئ فى الطبيعة ، فالطبيعة لم تعد كما كانت فى الشعر القديم وصفا ماديا تتدخل فيه الحواس من بصر وسمع وشم وذوق بل أصبح لحس الشاعر غير الباطنى دخل كبير فى الحديث عنها ولتأمله المغرق فى السبح فى أجواء بعيدة عن عالمنا دخل كبير

وكذلك أيضا فى شعره المتصل بالمرأة فهو لم يقف كغيره من شعراء الغزل المادى بل راح يمزج حنينه إليها بالقلق الصوفى المبهم على نحو رشيد .

نزعة الشاعر التأملية الباطنية

وأول ما يتجلى لنا فى تأملات " الصيرفى " أن الصمت صديقه الحميم لقد وجد فى الصمت نشوة وبهجة ويقول " روستر يفور " يجب ألا نفترض أن التجربة التأملية للشعر هى حالة شعرية تتميز بعدم النشاط إن كل تأمل سواء كان شعريا أو غير شعرى يتصف بالهدوء ويتطلب القيام به عزلة عن عالم الفعل الصريح ولكن إذا كان المتأمل هادئا دائما فهو أيضا نشط دائما.(٦)

ويعنى بذلك أن حالة الهدوء أو الصمت لدى الشاعر المتأمل هى أيضا حالة انفعالية أو عاطفية والانفعال الخلاق عند الشاعر لا يصل إليه عن طريق رد فعل عكسى للهدوء ، وانما هو تقوية للانفعال يصحبه اضطراب فى الهدوء دون أن يختفى هذا الهدوء كلية . فالجهد الخلاق تقويه منبهات الألفاظ والإيقاع التى يعمل بها الشاعر ولهذه المنبهات قدرة كبيرة على التهدئة والصمت والإثارة معا .

وعبر " الصيرفى " عن ذلك فى أقوال قصيدة له فى ديوان (صدى ونور ودموع) التى جاء فيها :

فى أبعد الأعماق من نفسى
خواطر تهفو إلى حسى
وكلما حامت على كأسى
ثارت عليها نوبة من كلال فأغرقتها فى خضم العدم

ثم يقول متحدثا عن الصمت الحبيب إلى نفسه :

غسلت بالصمت خداع المنى

٨

وجزت بالصمت سراب المنى
وعدت منه قانعا مؤمنا
والصمت يوحى سره بالجلال ويغمر النفس بعذب النسم
فارجعى لى يا عذارى الخيال صدى لحونى من وراء السدم[٧]

ففى هذه القصيدة التأملية الهامسة نقع على أول مفتاح لنزعة الشاعر التأملية الباطنية . ولبث الشاعر على هذا النزوع التأملى الباطنى مدة ، فاذا ما راوده قلبه على الانطلاق وده وزجره فقبع مع نفسه ، لقد وجد بادئ الرأى أن الحلم والتأمل أجدى عليه من التشوق الخارجى .

وتحمل قصيدته " إلى وكرك يا قلبى " الشهادة الأكيدة على هذا النزوع إذ يقول :

إلى وكرك يا قلبى ففى وكرك أحلامك
تعانق فيه ما يوحيه من شعرك إلهامك
وتغنى فى جلال الحب والأحلام آلامك
وتزخر فيه أصداؤك بالنجوى وأنغامك
فقد تسحرك الدنيا ، فتستيقظ آثامك
إذا ما حدت عن وكرك أو غرتك أوهامك [٨]

وهنا يحدثنا الشاعر أنه رأى زمر العشاق تهرع إلى ملذاتهم ورغباتهم الجامحة ، فيدعو قلبه إلى البعد عنهم والإخلاد إلى الوحدة والحلم العذب ، وكأن الشاعر يعطينا درسا من خلال تجربة تأمل تتضمن كل ضروب النشاط المتواصفة التى يمارسها العقل القلق وموضوع التأمل هو مضمون الشعور ذلك المضمون الموحد الذى يتميز بدرجة كبيرة من التركيب التاملى الباطنى أو الداخلى الذى يظهر من خلال الموقف الذاتى المتطور لشاعرنا المدرك المتأمل ويؤكد هذا القول قصيدته (البلبل) إذ يقول فيها :

٩

الربيـــع الطلـــق قـــد آب فمـــن لـــى بربيعـــى
بســمات النــور فــى عينـــى وارتـــها دموعـــى
وظـلال الراحـــة السـمحة مـــالت عـن ربوعـــى
ولـــهاة الطـــير قـد غصـــت . بمـــهراق النجيـــع
فدعمنـى صامتـا ... أدفـن فـى الصمت نزوعـــى
ما الربـيـع الحـق إلا خفقات فـى ضـلـوعـــى [٩]

ونراه فى هذه القصيدة ما يكاد يرى أوبة الربيع حتى ينـادى البلبل إلـى التغريد ، ويدعوه إلى تملى جماله ورونقه ، ولكنه لا يجد فى الربيع ما يصيبـه فـالربيع كمـا يقـول يعيش فى خفقات الضلوع وقد تمثلت تجربته المزدوجـة لنـا فـى أبياتـه حيث مـزج بيـن تأملاته الخارجية والداخلية .

نزعة " الصيرفى " التأملية المتصوفة :-

ويرغـب الشـاعر فـى الخـروج مـن هـذا الانـزواء وتسـرب تأملاتـــه إلـــى الدنيـــا الخارجية فيبدع بعض القصائد ذات التجارب التأملية الخارجية فيقول فى مستهل قصيدة (الفجر)[١٠] التأملية المتصوفة المتصلة بالدنيا الخارجية :

الله أكـــــــــــــبر .....!
الله أكـــــــــــــبر .....!
تســـبيحه العـــالم المطـــهر
للخـــالـــق المبدع المصور
الكون قـد هـب مـن كـــراه
يســتوضح النـــور عـــن رؤاه
كالناسـك الشـــيخ فـــى تقـــاه

طوى الهوى مذ طوى صباه
وغاب ماضيه فى دجاه
وأنسى الأمس أو سلاه
فلم تعد تهتف الشفاه
بغير ما رجعت صداه
جوانب الأفق حين كبر
تسبيحه العالم المطهر
الله أكبر
الله أكبر

فشعره التأملى المستغرق فى الشجن يكشف لنا عن طبيعته السمحة ، وحسه النبيل ويفصح عن مقدار تعلقه بدينه وربه إذ يقول فى قصيدته (الحيارى) :

قد سبحنا بالفكر عندك يا رب ... فتاهت أرواحنا فى سمائك
وشدونا ما قد شدونا ولكن ... ضاع هذا جميعه فى فضائك
وعرفنا من الخيال معانيه ... وغابت عنا معانى جلائك
وسمعناك فى الضمائر توحى ... ما يهز القلوب من إيحائك
أنت قدرت أن نعيش حيارى ... والحيارى على الأرض بقضائك [١١]
أنفس تهمس الرغائب فيها ... همسات لكفاح والجسم شائك
فى صراع الجسور تنتقل الأر ... واح ترجو الهدوء عند جوائك
ليت هذى الجسوم كانت صفاء ... مستمدا جلاله من صفائك
لنعمنا مع الخلود بسر ... دنيوى وصلته بسمائك [١٢]

١١

وأبيات هذه القصيدة التأملية تتجلى فيها المسحة الصوفية الرقيقة ، ولكنه التصوف الجلى المعتدل لا السابح فى تهاويم الفكر ومجاهل الخيال . حيث تجلت هذه المعانى بوضوح فى مناجاته ربه .

فى تأملاته الإنسانية قصيدة "عندما تحترق الفراشة " فيختلف المنزع إذ يقول :

ستشعر يا نور بعد الأوان

وبعد انهزام الدجى بالندم

فإن الفراشة روح الجنان

خبت روحها فى لهيب الألم

أحبتك ملئ المدى والزمان

وملئ الوجود وملئ العدم

ورفت عليك هوى فى حنان

فأوسعتها حرقة تضطرم

وكان الجناحان إذ يخفقان

يصدان عنك رياح السأم

تجاهلتها بئس هذا الهوان

وقد وهبت روحها عن كرم

ستضحك يا نور فى عنفوان

وتسخر من نزوات النسم

ولكن ستشعر بعد الأوان

بأنك فارقت أغلى النعم [١٣]

١٢

والشاعر هنا يبلغ درجة بعيدة من الأصالة فى عمق تأملاته وإبداعه التأملى عندما يقول للنور إنه سيندم لإحراقه الفراشة التى تحبه وتدق حوله فى بهجة وحنان وكأنما يقول للإنسان السادى[١٤] إنه سيندم عندما يؤذى حبيبته المتولهة ، وقد استقى معانى هذه القصيدة من الحدس والعقل الباطن لا من العقل الواعى .

الخيال التأملى :-

وينبغى لنا ألا نخلط بين الموقف التأملى وبين هذه الطاقة الإبداعية الواضحة لدى " حسن كامل الصيرفى " ومع ذلك فإن النزعة التأملية فى الذهن هى التى ينشأ عنها الدافع الإبداعى ، ذلك الدافع الذى يخلق أثناء تحقيقه لذاته موضوعات جديدة للتأمل ولذلك لم يحصر " الصيرفى " نفسه فى هذه التأملات ولم يكتف بالصمت الصديق ولكنه هفا إلى من يشاركه ويفضى إليه همومه فلم يجد إلا جمال الطبيعة فى تلك القصيدة التأملية التى تبين الكثير من شخصية " الصيرفى " ذات الطبيعة الصامتة والنفسية الطيبة كان للطبيعة أثر فى تكوينها وتلوينها . فقد عاش مشدودا ببصره إلى الكون مشدودا ببصيرته وأحاسيسه ومشاعره وروحه ووجدانه إلى كل شئ فى الطبيعة حتى إنه ليكتب قصيدة بعنوان (تحت ضوء القمر) والقمر لديه لم يعد كما كان فى الماضى ولم يعد كوجه العذراء إذا كان مكتملا يختفى خجلا وحياء خلف هذا النقاب الأبيض الشفاف ممثلا فى تلك السحابات البيضاء الخفيفة ، يختفى تحتها تارة ويتبرج تارة أخرى حين تجاوز إلى حين تأتى سحابة أخرى تحجبه إذ يقول شاعرنا :

أيها البدر وقد أشرقت مزهوا بنورك
سكر الناس على ضوئك من خمر سرورك
أيها البدر وكم علمت أبناء الحياه
كيف يسعى المرء فى الدنيا ولا يطوى مناه(١٥)

١٣

وهنا يمزج الشاعر أحاسيس جمة كونتها فى نفسه هواجس وأهازيج وأحلام وآلام وأوهام وتاريخ وذكريات وتداخلت كل هذه الأحاسيس فى نفسه الألمة المتأملة فى آن ، ليخرج من هذا التداخل والتشابك مزيج من لون غير مألوف فى الشعر القديم لا يفصل الشاعر فيه عن ذكرياته وماضيه ولا عن مكونان نفسه ومحتويات شخصيته التأملية ولا عن أحاسيسه التى لمسها بنفسه فى أوج الشعور بفقد الحبيب .

فقد لمحنا جمال التشخيص فى مخاطبة البدر وفى خلع الشاعر عليه بعض صفات الأحياء وبثه الحياة ليبدو نابضا زاخرا بالحركة مما يدعو إلى الفكر والتأمل وعلى هذا النحو جرت سوانحه التأملية هادئة وانية يغلب عليها الوصف ولا يشعل ضرامها الانفعال فإذا ما اقترب من المرأة وتعرفها سرى فى شعره الانفعال وعمقت التجربة وانطلق بيانه ليقول قصيدته الغزلية (إسراء): (١٦)

أحقا كان ما أملت حين شعرت أم حلما ؟
أحقا كان بين يدى ، حين ضممت أم وهما ؟
ضممت العمر و الآمال حين غمرتها ضما
وقبلت الربيع السمح من أثوابها نما
وذقت الخلد من شفتين ما أحلاهما طعما
أكانت لحظة من لحظات الخلد أم أسمى
وكانت نقلة بالروح أم بالجسد أم بهما
رأيت بها جنان الله قد حلين لى رسما
نعمت بهن ، لو دامت لفان هذه النعمى!

ويروى الشاعر فى هذه القصيدة أن القبلة البريئة والضمة العفيفة نقلناه إلى عالم روحى ، لقد كانتا له بمثابة الإسراء من الأرض إلى السماء وقد أدى هذه التجربة أداء حيا وعميقا ملحوظا .

ويقول الأستاذ " مصطفى عبد اللطيف السحرتى " : ونعتقد أنها لم تكن نقلة روحية ، فقط بل كانت هذه القصيدة أكثر عمقا وحدة من تجاربه فالانفعال ينساب قويا فى أطواء القصيدة يواكب معانيها وأفكارها ونغمة القصيدة أو الحالة النفسية ، أو لون الانفعال المعبر عنه يوشح أبياتها واتجاهه نحو الحب العف ممثل أقوى تمثيل.[١٧] وهكذا تجلى لنا الخيال التأملى وهو وحده الذى يخاطبه الشاعر فى حديثه عن المرأة والطبيعة ويخاطبه الشعر مشبعا بنتائج التجربة الذاتية ، تدل على وجود حركة المرور الكثيفة التى توجد فى الطريق الموصل بين الحياة والشعر ولكن بصورة (خفية) أو (باطنية) أو لا تظهر على سطح الطريق وذلك لأن كل ما يمر من خلالها إلى العالم الشعرى يصيبه تغيير كبير فى أثناء مروره إذ يتحرر من قوانين العالم الحقيقى ويحظى بحرية عالم (قائم بذاته) كامل مستقل[١٨] لدى شاعرنا المفكر المتأمل .

وبعد أن اختمرت تجربة الإسراء اختمارا طويلا ونضج فنه فيها اتخذت رمز الإسراء محددا لفكرتها وكلما زادت التجربة اختمارا واتخذت لها رمزا قوى بناؤها وكمل فنها . وتتجلى هذه النقلة الروحية التأملية والفنية أيضا فى قصيدته " تفاؤل " وهو بها يودع حالة نفسية وروحية مكتئبة صاحبته أمدا طويلا فى زهرة العمر وانتعشت هذه الحالة فى أغلب قصائد ديوانه " الألحان الضائعة " .

ومما لاشك فيه أن ملك الحب طرد الوهم من قلبه وفتح نوافذ قلبه وعطر جوانب روحه فاهتزت هزة جديدة ونفث قلمه فى طلقه فيقول :

١٥

سأضحك يا سماء فلا تغيمى
وأهزأ بالمتاعب والهموم
فؤادى جنة حفلت رباهـــا
بمختلف المشاهد والرسوم
منضرة الازاهر والدوالـــى
معطرة الجداول والنسيم
حماها أن يلم بها خريـــــف
ربيع من فراديس النعيـــم
سأضحك يا سماء فرددى[١٩]
غنائى يا سماء ولا تغيمى !
مضى ليل الخطوب فلا تعيدى
إلى ذكراك أيام الحســوم
ولا تدعى الغيوم مجمعـــات
فقد بددت من أفقى غيومى
سـأحلـم بالســلام على رباهـا
وما حلمى سوى فجر قسيم
هتفت لـه وراء الليـــل حتـــى
أحاط الفجر بالليل البهيـــم
وبـان علـى مـدار الأفق خيط
يشار به إلى الأمل الوسيم[٢٠]

وهكذا يترنم " الصيرفى" بأدق المعانى يعيدها فى طلاقة ويكررها فى حلاوة معبرا عن جذلة الروحى وتفاؤله معتمدا على مشاهد الطبيعة المشرقة ، والسماء ، والربيع والأزهار ، والفجر ، والصباح ، والطيور ، والنجوم وكرر هذه الألفاظ مرات وقد افتتح قصيدته بنغمة مرحة وجالت هذه النغمة فى طيات أبياته ، حتى انتهت بها وهذا مبدأ جمالى مهم من المبادئ الواجبة فى الشعر التأملى .

إن التجربة الجمالية الكاملة هى تجربة تأمل وموضوع التأمل هو مضمون الشعور الذى يظهر من خلال الموقف الذاتى المتطور للشخص المتأمل المدرك المفكر ولذلك نستطيع أن نعجب بما يتصوره الشاعر لما لديه من قوة على إيجاد التجربة الجمالية فى نفوسنا جميعا .

وقد يدور فى خلدنا أن "حسن كامل الصيرفى " وهو ينسى همومه ويركن إلى التفاؤل والبشر ليسكنا قلبه ، ينسى أحزانه ، والواقع أن هذه الأحزان لا تبارحه . فالحزن أرسخ فى القلوب من أية نزعة إنسانية أخرى ولهذا نراه يتجاوب مع الموضوعات التى تمس ما رسخ فى نفسه من الأحزان[٢١] . وتدفقت شاعريته المتأملة فى جل ما دبجته يراعته من أشعار فشعره التأملى يعد أثرا فنيا يروع ويسحر بما اشتمل عليه من سمات التعبير والبيان فكان مجيدا فى وصف المشاعر والعواطف والأحاسيس النفسية الدفينة .

تأملات الشاعر المشوبة بالفلسفة :-

ومما هو جدير بالإشارة أن " الصيرفى " عندما نظر إلى الحياة والكون من خلال مرائيه كانت نظرته نظرة فليسوف متأمل فله فى الدموع - مثلا - نظرات متأملة واعية إذ يقول :

دموعـــى انـــت أمطـــار مـــن الآمـــال مـــن عمـــرى
دموعـــى كنـــت آمـــالا تمـــد القلـــب بالبشـــر
وكـــانت هـــذه الآمـــا ل مثـــل روائـــح الزهـــر
يفـــوح الشـــعر للعشـــا ق حلـــوا طيـــب العطـــر
إذا مـــا قلتـــه فيـــها فـــأين بواســـم الشـــعر
لقـــد جفـــت أزاهـــيرى وفيـــها رونـــق العمـــر
دموعـــى انـــت أنـــداء فـــروى زهـــرة غـــيرى
دموعـــى انـــت أنغـــام تـــردد فـــى حمـــى الصخـــر
فمـــن يســـتمع الأنـــا ت ؟ من ينصت؟من يدرى ؟
ومـــن يـــرثـــى لآلامـــى ومـــن يـــبكى علـــى قبرى ؟[٢٢]

ويقول فى قصيدته (المنديل):

أنت يا نسج الأمانى للدموع عند بؤسى
تستقى من أدمعى خمرا تروع كل كأس
فارو ممـا شئت أو مـا شاءت الآلام دهرا [٢٣]
فإذا جفـت دمـوعـى فـابق للآلام ذكرى [٢٤]

" والصيرفىّ لا يذرف الدموع خدعة ، أو زورا ، أو رياء ، ولكنه يذرفها فى صدق ووفاء وقد عبر عن تلك المعانى فى تأمل وشفافية فى قصيدته " نغمات ونسمات" التى يقول فيها :

عـالمى عـالم المحاسـن والحـب واكـرم بعالـــمى المسـحور
عالمى ... عالم الجمال بريـــئا من رياء أو خدعة أو زور
عالمى ... آخذ من البدر نـــورا ومن الشمس جلوه فى الظهور

١٨

عالمى ... عالم الصفاء مع النا س بعيدا عن اصطناع الغرور
عالمى ... عالم الوفاء إلى الخـ ـلان أبكيهم بدمع غزير [٢٥]

ومن أجل هذا التأمل المشوب بشيء من الفلسفة الذى غلب على " الصيرفى " فى جل فنونه الشعرية . رأينا الأستاذ " السحرتى " يقول فى دراسته عن (الألحان والشروق) والملحوظ جنوح الشاعر - غالبا - إلى التجريد فى المعانى وميله إلى الإبهام فى أحيان ، كما نلحظ ذلك فى قصيدته البديعة (المعنى المبهم) وفى مطولته المهموسة (وحدة العمر) كثير من التأملات والمعانى الغامضة [٢٦]. يقول فى (المعنى المبهم)

تطوف روحى وراء معنى يجول فى خاطر الزمان
يمر كالضوء فى خيالى ويلهب النار فى بيانى
ويملأ اللحن منه سمعى ولست أدرى مدى صداه
يطوف فى عالمى ويسعى ولست أدريه أو أراه
ذوبت روحى بنار حب بثثت معناه فى نشيدى
يعيش فى خاطرى وقلبى بلا زمان ولا حدود
تمر منه على ذات كنسمة الفجر فى الربيع
وما يزال الزمان يمضى ولست أدرى الذى أريده
وأعجب الأمر أن قلبى يجهل معنى الذى يريده !
يا أيها المبهم الخفى فى خاطر المبهم الزمان
متى يلوح الخفى حتى يفسر اللغز عاشقان [٢٧]

وليس معنى هذا أن الشاعر كان يشفق على نفسه الرقيقة وحسه النبيل من مشاعر الحزن ، فالدنيا كانت دائما فى عينيه رسوما لم تجمل بالظلال فاستمع إليه فى قصيدته " وحدة العمر " إذ يقول .

ستختلف الحيـاة أمـام عينـى تمر طيوفـها وتغيـب عنـى
وتغنى فى محيط مـن تمنـى واحـلام تلـوح بكـل لـون
وما أنا غير طيـف مـن رؤاها تـأخر حينـه حتـى يراهـا
ويعرف ضعفها ومدى قواهـا وتفرحه وتبكيه مناهـا[٢٨]

ويعرف حدود نفسه المتأملة ، ويدرك السعادة ملء كأسه فيقول :

تعـال فقـد عرفـت حـدود نفسـى
وأدركـت السـعادة مـلء كأسـى
تعـال فـهذه الدنيـا حيـالى
رسـوم لـم تجمـل بـالظلال
يـد الأقـدار تزعجنـى دوامـا
وتطلـق فـى سـكينتى السـهاما
وتمـلأ رحـب إحساسـى زحامـا
تعـال فحـول الدنيـا سـلاما[٢٩]

وهنا كأنه يريد أن يلفتنا إلى هذا التحول الآمل الذى مـلأ أقطـار نفسـه وإلـى هذا الإصرار على هجر الماضى بكل ما كان يجلله من أسى وألم ، وتبديد ما يطرأ فى أفقـه من غيوم ، والحلم بالسلام على ربى غده الآمل الموعود فهذه نظرات متأمله لا تخلو من التفلسف ولكن الفلسفة على كل حال لم توهن من قوة تجربته الوجدانية فـى تلـك الأبيـات ولم تصبها بالجمود وتتأكد كل هذه المعانى التأملية فى قصيدتـه (الحيرة) التـى أهداها إلى الأستاذ " اسماعيل مظهر " صاحب مجلة " العصور " الذى حمل مشعل المعرفة زمنا بين الرياح الهوج وفيها يقول :

يا عالمي أنا سار في شعاب دجى يلهو بغاية روحي ليلة الضافي!
كأنني أنا ثأر ظل مشتعلا بين الوجود وبين المبهم الخافي !
وكلما شاهدت عيناي في أفقي ذاتا تحققتها أطياف أطياف
كأنني - والأماني فيّ جائشة - أفق تذوب به أصداء هتاف
حُيِّرت في عالم تطغى عجائبه على رؤاه وخاب نوره الصافي
ما أضيع النور في قوم يحيرهم سر بهيم وكون حالم غاف (٣٠)

وقد يسيطر على شاعرنا المعنى الفلسفي ويتردد في خاطره بعض الوقت ثم لا يملك في نهاية الشوط سوى التعبير عنه ووصفه في سمط شعري بديع .

والفكر الفلسفي نلمحه في قصائده غير التأملية ولكنها أكثر ما تكون ورودا في شعره التأملي . فالتأمل كما نعلم وثيق الصلة بالفلسفة وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الدكتور " محمد سعد فشوان " ومن العجيب حقا أن يظهر هذا اللون من شعر " الصيرفي " ويشتد عوده في حياته الشعرية الباكره إذ المعهود في الشاعر أن يبدأ عاطفيا وجدانيا وينتهي في مرحلته الحيوية الأخيرة إلى الفلسفة والتأمل ولكن هذا الشاعر بدأ من حيث انتهى غيره ولا أعلم أحدا يتفق مع شاعرنا أو يتفق شاعرنا معه في تلك الناحية من شعرائنا المحدثين سوى الأستاذ " العقاد " رحمه الله .(٣١)

ويتضح لنا من هذا القول مدى تمكن شاعرية " الصيرفي " التأملية من أغوار نفسه وجدانا وفكرا .

تأملات " الصيرفي " التصوفية :

أما شعره التأملي الذي تعلوه مسحه خفيفة من التصوف فنجد نماذجه في الكثير من شعره الذي قاله في الحب والمرأة والطبيعة وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا الشاعر كان يمزج حنينه إلى المرأة بالقلق الصوفي المبهم .

لقد راح " الصيرفى " يتحدث عن محبوبته بكل تقدير واحترام ويتخذ لها نظيرا فى حديثه عنها من عالم الطبيعة الذى أحبه هذا العالم المحاط بأسرار السحر والجاذبية المغمور بنور الجمال العلوى السابح فى الألحان القدسية الراقية.[٣٢]

وقال فى ذلك الدكتور " عبد العزيز عتيق " فى تقديمه ديوان "الألحان الضائعة" على أن شعره فى ذلك لا يخرج عن كونه غزلا صوفيا ، فهو لا ينشد فى المرأة ما ينشده كثرة الشعراء مما أفاضوا فى وصفه وذكره ولكنه يرجوها لترقأ دموعه إذ طغى سيل الحوادث [٣٣] وفى نظرته الجديدة هذه يكمن التأمل الذى يعلوه مسحه تصوفية واستشهد على ذلك بقصيدة (تحت ضوء القمر) نذكر منها :

أراك تخفيت خلف السحاب وكم فى الحياة سحائب دجن
تمر عليك فما تستكين لغاراتها ، وهى دوما تشن
وتبدو لنا باسم الثغر فى هُزء بتلك الغيوم الكثيفة
فهلا بعثت إلى أنفس بهذى الحياة حيارى ضعيفة
ببعض عزائمك الساخرات
بكل كؤود من الغيم عات!
لنسلك به طريق الحياة
بأقصى هدوء وأقصى ثبات ! [٣٤]

وهكذا يمزج شاعرنا تأملاته عن القمر بتلك النزعة الصوفية الراقية وقد كونتها فى نفسه أحلام وآمال تداخلت فى نفسه الآملة والألمة فى آن ليخرج لنا صورة تأملية سامية ، ويقول متحدثا عن الشاعر - وهو فى الحقيقة يتحدث عن نفسه -

فى قصيدة " طيف السلام ".[٣٥]

والشاعر الحق ساق ظامئٌ وفم

أن يطلع الكون جهما فهو مبتسم

يعيش فى غمـرة الدنيـا بهيكلـه

وروحه تتســامى نـحـوها القمـم

وفى قصيدته (الزنبق) [٣٦]

ما عاش قلبى لحظة

فى مانج من ضغن

ولا انطوى صدرى على

أثاره من إحن.....

فان مضيت فاذكروا

قلبى النقى المؤمن

الزنبق الطاهر بمـــ

ـضى ناصعا لم يشن

عبيره على الدانى

وروحـــه فـى القنـن

ويقول فى قصيدته " الشاعر "[٣٧] **وعن الشاعر أيضا :**

أنشودة عاش ..... وألحانها

ينقلها الصدّاح فى الدوح

عاش بقلب مشرق طاهر

وبالضمير الخالص السمح

الحب نجواه وإلهامه.....

يمنحه ... لا حد فى المنح

يعيش بين الناس فى حزنهم

مشاركا صدقا ، وفى الفرح

فى قلبه الدنيا وفى روحه

معالـم الجنـة فى السـبح

وقد كثرت نماذجه الشعرية التأملية الممتزجة بالنزعة الصوفية الخفيفة كثرة هائلة فقد قال فى قصيدته " ابتهاله "

أسمو بكل جميل وما اشـتهيت ابتذاله

وما رميت شباكا ولا نصبت حبالـه

لكن عبدت الهـى فى كل حسـن بدالـه

قدست كل نبيـل تشـع منـه النبـالـة

نهلت منه حياتى نـقـيـة وحـلالـة

كبرت لله مضفى هذا السـنا والجلالـة

لأنت أنت صلاة قدسـية لا محالـه

فى معبد من نقاء سـمعت فيه بلاله[٣٨]

مؤذنا بالخيـال رام السحاب فطاله[٣٩]

وهكذا راح الشاعر يتأمل فى عالم الطبيعة المحاط بأسرار السحر والجاذبية ، والمغمور بنور الجمال العلوى السابح فى الألحان القدسية الحالمة كما أشرت سلفا . وقد قال فى (حب الحياة) :

٢٤

لأننا نعيش فى الوجود بالجسوم مرة
نخاف أن نموت ألف ألف مرة
فنجرع الدواء : حلوه ومره
ونطلب الشفاء صحة وقدرة
وهذه الحياة : شهقة وزفرة (٤٠)

ولقد فجرت الطبيعة ما فى نفسه من الأفكار والنظرات التى تمتزج بها روح التأمل والاستنباط الذاتى البعيد ، وما تفود إليه تلك الروح من رؤى صوفيه متسامية على النحو المشار إليه فيما سبق ، فقد عاش " الصيرفى " يستلفت نظره أبسط ما فى الطبيعة والكون من مشاهد وقد تكون مشاهد عابرة أو مرائى معتادة وربما لا تستلفت نظر غيره من الشعراء أو غير الشعراء ولكنه لم يكن يملك إزاءها فى النهاية إلا التأمل والاندماج بها والحلول فيها والتحدث عن آماله وآلامه من خلالها .

فالشجرة العارية(٤١) - مثلا - فى فصل الخريف قد تكون مشهدا مألوفا ولكن " الصيرفى " تستوقفه تلك الشجرة وتستمطر دموعه وتهيج خواطره وتوقظ أحزانه فيروح ينظر إلى نفسه من خلال تلك الشجرة المعراه من مظاهر النضرة والحياة ويروح لسانه يتردد فى فمه مترجما عن تلك الأحاسيس والمشاعر بهذه الأبيات التى وجهها إلى تلك الشجرة :

أنا أنت ... لكن خبرينى ... أترى أعود إلى ربيعى
ترويك أمطار الشتاء ... إذا ارتويت من الدموع
أنا أنت منتشر الغصون مددت ظلى فى الحياة
لكن أهواء الخريف كأنها حكم الطغاة
عصفت بأوراقى فلا ظل يمد على هواتى
لكن يعود لك الربيع فهل يعود إذا ربيعى؟

٢٥

نعم سيعود الربيع إلى تلك الشجرة يوما وستكسوها الخضرة حين يرحل الشتاء وينقشع الظلام ، أما هو فهيهات أن يعود إليه ربيعه ، ويستأنف الشاعر حواره مع تلك الشجرة فيقول :

أنا أنت .... منفرد يحيط بى السكون بلا سمير
لكن تحيط بى الطيور ، كعهدك الماضى الزهير
وتحط فوقك تطلب الذكرى ، وتهجرنى طيورى
ولسوف يرتد الربيع ... فخبرينى عن ربيعى ؟
أنا أنت لكن أنت أسعد من حياتى فى الخريف
فلتذكرينى فى الربيع يمر فى رفق الطيوف
ويعود موفور السرور كعودة الصب اللهيف
ويعود ماضيك الجميل ولا أعود إلى ربيعى

هكذا يكون المزج بين الشاعر والشجرة العارية بكل ما فيه من مشاعر وأحاسيس آملة أرأيت كيف يكون التأمل المغلف بروح خفيفة من الفلسفة فى الكون والطبيعة ؟ وكيف تكون الموازنة بين حال الشاعر وحال تلك الشجرة العارية التى لا تعى شيئا ولا تحس شيئا أى شئ مما يتردد فى خاطر الشاعر ؟ .. ويقول " د/ محمد سعد فشوان " معلقا على تلك القصيدة . ولا شك أن فى هذه الأبيات (الشجرة العارية) نفحات من شعر المهجر وبخاصة فى المضمون أو الفكرة فهذه الأبيات تذكرنا بقصيدة (النهر المتجمد) " لميخائيل نعيمة " فالفكرة واحدة وإن اختلف الموضوع وإن تميز كل شاعر منهما بألفاظه وأساليبه وأخيلته وبطرائق الأداء المختلفة عنده بلا أدنى شك. (٤٢)

فالطبيعة لم تعد كم كانت فى الشعر الموروث مجرد وصف مادى يعتمد على الحواس من بصر وسمع وشم وذوق بل اصبح لحواس الشاعر المعنوية حواسه غير المنظورة ودخل كبير فى التأمل فيها والتحدث عنها .

ويقول " د/ عبد العزيز عتيق " لقد ترك " الصيرفى " الشعراء يسيرون فى طرقهم المألوفة وراح يختط لنفسه طريقا جديدة ولقد كان شعره فى الطبيعة أغنية عذبة من أغانى الحياة (الندية) وتعبيرا من تعبيراتها الشعرية ممزوجا بأسفه العميق وتأملاته السديدة وسبحاته الشفيفة التى تنعتق عن العالم الأرضى لتحلق فى سماوات بعيده من الخيال والنور .[٤٣]

تأملات الشاعر الرمزية :

وأما التأمل الفكرى الذى انتهى بالشعر إلى الرمزية فقد اتخذ له مظهرا فى طريقة التعبير حينا وفى تصوير الأحداث التى ترمز للمعانى والأحاسيس حينا آخر. فقد مزج أقاصيصه الشعرية بالرمز وبالتأمل والفلسفة وبدت تعبيرات " الصيرفى " غير مألوفة لكثير من النقاد ذلك لانه يجمع بين التعبير الواحد وبين عوالم الحس المختلفة ويستعين بهذا على قوة الإثارة والإيحاء دون أن يذهب بوضوح فكرته مثل قوله (معاقرة الوهم)[٤٤] فى قصيدته الطويلة " الشاعر " حيث يقول فيها مخاطبا الله عز وجل :

لا تدعنى هنا أعانق حلما لا تدعنى هنا أعاقر وهما

إن وجه الجنان بُدّل جهما

ويقول د/ " محمد سعد فشوان " أن الرمزية لا ترى أن وظيفة الشعر هى استنفاد كل ما فى وجدان الشاعر ، وسكبه فى وجدان الآخرين بل ترى أن وظيفته هى الإيحاء عن طريق الصور والموسيقى بحالات نفسية - إيحاء ينير عن طريق التأمل - للآخرين

نفوسهم فيستشعرون وقع التجربة التى عاناها الشاعر فى حياته الواقعية أو بطاقته التصويرية التى تخلق التجارب بل وتستطيع أن تبث الحياة فى الحياة ذاتها. (٤٥)

ولقد آمن " الصيرفى " بالرمزية وقدرته على نقل كثير من نظرات الفكر والتأمل واستيعاب إياها فى كثير من الأحيان ، فراح يتحدث عن أشياء غيبية حديثا ملؤه اليقظة والوعى والإدراك بما للرمز من مزايا تذهب جفاف العقل وركود الذهن ، وتحرك مائية الشعر فينساب إلى النفس فى عذوبة ورقة وسماحة ولين .

وأما رمزية الأحداث فقد تمثلت فى قصيدة " الشاعر "(٤٦) التى يتصور فيها " الصيرفى " كيف خلق الشعر على شفتى آدم عندما حاول أن يعبر لحواء عن غرامه، ثم كيف خرج الشاعر مع آدم من الجنة إلى الأرض ليشقى فيها موزعا بين الحنين إلى صفاء الجنة وبين شهوات الجسم الملتهبة فيقول :-

أنا طيف آت من الفردوس أنا همس يسمو على كل همس
أنا حلم يجوب فى كل نفس
أنا نور جهلتموه زمانا أنا روض جهلتموه مكانا
أنا وحى لم تدركوه عيانا
فخذ من الجنة قيثارتى وانزل إلى الأرض بأنفاسيه
خفف عن المتعب آلامه واسبل عليه رحمتى الحانيه
أنشد فى بلواه أنشودتى وعزه عن جنتى النائيه

وعندما يهبط الشاعر إلى الأرض مفتونا بها مشوقا إليها يرى من أمرها عجبا وإذا أبناؤها يجدون ويهزلون ويألمون ويأملون ويصارحون ويتواصفون ويشجنون .

عجيب لسكان هذا الوجو د ضحايا ولكنهم يعبثون
تبددهم سخريات الحيا ة وتجمعهم سخريات المنون

تصوفهم من جمود الصخو ر وشهوتهم من ضرام الجنون

وفيها يقول " د/ عبد العزيز عتيق " تلك هى فكرة (الشاعر) وهى قصة تمثل لنا نفس الشاعر وآماله ورسالته ، ثم قلقه وحيرته فهو لا يطيق الوحدة حتى ولو كان فى فراديس الجنان فإذا ما أفلت منها إلى الآفاق الجديدة المجهولة تلك التى يخيل إليه إن السعادة كل السعادة فيها فسرعان ما تعاوده حيرته وقلقه ، حيث يصطدم بدنيا الحقائق ، وسرعان ما يهم بأن يودعها ولكن إلى أين ؟ .

ولقد نجح " الصيرفى " فى تصويره لهذه القصة خير تصوير كما عبر عنها أوضح تعبير وإن هذه القصيدة وحدها لكفيلة أن تنظمه فى سلك الشعراء المنفردين المطبوعين[٤٧] وفى قصيدة " موت عزائيل "[٤٨] من نفس الديوان تصور الشاعر أن ملك الموت " عزائيل " قد انتهى من قبض أرواح جميع الناس فأصبح لا عمل له ، وعندئذ حق عليه الموت هو الآخر ولا بد أن يسقى بنفس الكأس التى طالما جرعها كل كائن وهنا ينظر الله إلى الدنيا فيراها كعهدها الأول فينادى " ملك الموت " آنئذ .

إيه (عزريل)هل تواروا جميعا وتلاشوا فى هذه واستقروا

واستردت افلاذها من نمتهم؟ " قد تلاشوا مولاى وانفض دهر "

إيه (عزريل)؟ حبنك الآن دان فامضى واجرع ما لست منه تفر

وتوالت رؤى ضحاياه تبدى صور الهول ، وهو أسود نكر

كل هذه الأشباح كانت سراعا فى خيال الموت الكئيب تمر

ثم ماذا ؟

ثم حان الوقت الذى ليس منه مفر فى محيط الأقدار يوما مفر

فدوت صرخة فمادت لها الأر ض وطافت أصداؤها لا تفر

ودوت صرخة فأسلم فيها ملك الموت روحه تستقر

٢٩

تلك هى قصة " موت عزرائيل" وهى قصة فيها جمال وطرافة وتشير هذه القصيدة إلى احتفال " الصيرفى " بالفكرة وانتحائه فى الشعر ناحية جديدة من حيث طرافة الفكر وسلامة التعبير عنها وكذلك من حيث روعة الأداء .

وهكذا يعبر الشاعر بفكره المتأمل مئات الآلاف من السنين إلى حيث نهاية هذا العالم وفناءه وحيث الرجعى ، وحيث المقر . وهكذا أطال " الصيرفى " التأمل فى أسرار الحياة والكون وأصبح له نظرة عميقة إلى الألم تصبغها تجاربه العريضة فى الحياة بصبغة تأملية واضحة وقد كتب قصيده بعنوان " قصائدى الأخيرة " .....قدم لها بقوله :-

يسألنى بعض الرفاق : لماذا أكثر الآن من نظم القصائد القصيرة فى الأبحر الصغيرة فإليهم الجواب :

آلامى المـــوارة الدفاقـــة الكثـــيرة
أحزانـــى الصامتـــة الدامعـــة الغزيـــرة
مـا بـان فـى الجفـون أو ما غاب فى السريرة
عـــابرة مـــن عـــالم أضيـق مـن حفـيره
إلـــى محيـــط واســـع فـــى الفجـوة الكبـيرة
قصـــائدى القصـــيرة أنفاســـى الأخـــيرة
كومضـــة المصبـــاح فـــى انتلاقـه منـيرة
فى خفقـة مسـرعـة لاهـثـة قـصيرة (٤٩)

وهذه النظرة المتأملة الواعية هى نفسها التى أنطقت الشاعر بقوله :-

هذا المسافر بعد طول صراع

فى عالم الآلام والأوجاع

٣٠

ماض كأحلام الصباح ترفها

زمر من الأنغام والأسجاع

ماض عن الدنيا وسحر بريقها

بعد التعلق بالسنا الخداع

نفض اليدين ، فزاده فى قلبه

لم تقترب منه ظلال ضياع

وهذه نظرة عاقلة للحياة ، وما فيها من بريق خداع أملتها عليه طبيعة المراحل التى عاشها ومجابهته آلام المرض وآلام تنكر المجتمع له .

ويتضح لنا من خلال ما سبق أن التجربة النهائية والتجربة الشعرية هى تجربة تأملية لها قيمتها الأكيدة فى تنظيم التأمل وهذه الناحية التى يوجد فيها تأثير الشعر من حيث هو شعر أما ما يتعرض للفكر والسلوك لا يكون له أهمية إلا فى حالة تلك القصائد التى تقدم لنا تجربة تأملية صادقة وذلك لأن كل ضرب من التفكير والعاطفة يدخل فى عالم التأمل الشعرى ، وقد يعود عن طريق التحليل إلى عالم الحياة اليومية ليؤثر فى مواقفنا وسلوكنا ولا يستطيع الشاعر أن يتخلى عن مسئوليته فيما يتعلق بذلك الذى يمكن استنباطه من نتائجه .

وفى الشعر كثيرا ما تكون صبغة من عالم الفكر والحياة اليومية وقد يحدث خلط مما يعجز القصائد عن أن تمدنا بتجربة تأملية متكاملة عندئذ يكون العيب عيبنا نحن لا عيب الشاعر اذ يتوقف الكثير على القارئ غير الناضج الذى تعوزه الحساسية الفنية التي تمثل حلقة الاتصال بين عالم الفعل و (السلوك الفكرى) وعالم الفن الذى يتميز بالتجربة التأملية التى تنشأ فى نفوسنا عن طريق الشعر من الثبات والوحدة والصفاء. وهكذا فالتأمل هنا يؤدى الى الفعل ويعبر عنها " روسير يفور هاملتون " بصدق كامل فيقول :-

إن الشاعر هو الإنسان الذى عن طريق تنظيم الألفاظ فى شكل موزون يخلق تجربة تأملية موحدة ذات طابع يتميز بدرجة كبيرة من الموضوعية . ويجب ألا نتصور الشاعر على أنه يوصل تجربته اليومية التى تمتاز عن تجربة الشخص العادى فى أنها أكثر منها نظاما وتنسيقا ، فقيمة التجربة اليومية مهما كانت طبيعتها ليست قيمة شعرية، والشاعر من حيث هو شاعر يحل محل هذه التجربة تجربة أخرى مختلفة ، تجربة شعرية يخلقها عن طريق الألفاظ وهو لا يوصل أو يعبر عن تجربة كانت موجودة أصلا قبل كتابة القصيدة ، بل هو يخلق تجربة جديدة لا للغير فحسب بل لنفسه أيضا ولنفسه أولا .

٥ ٥ ٥

والتأمل حالة من النشاط بالإضافة إلى كونها حالة هادئة ونشاط الذهن ، ولكن حتى وإن كانت التجربة تتضمن حقيقة موجودة خارجها فإن وظيفة الشعر الصادقة هى الاهتمام بالتجربة لذاتها لا من أجل شئ أبعد منها (٥٠) . وهكذا يتبين لنا أن التجربة التأملية للشعر تتميز بنوع خاص من الثبات والوحدة والصفاء . فهى عالم كامل يقوم بذاته يمكننا أن نجد فيه راحتنا بما فيه من تجريد فى المعانى والميل إلى الإبهام أحيانا .

وقد رأينا إلى أى حد يوازى التأمل لدى الشاعر الفريد " حسن كامل الصيرفى " خط حياته حتى ليصبح القول بأن " الصيرفى " كان من أكبر شعراء جمعية أبولو التى وضحت لديهم نزعة الشعر التأملى وأنه كان فى طليعة من استطاعوا تحقيق هذه النزعة من بين شعرائها ، فتضاريس حياته هى التى شقت لشعره التأملى طريقه وكان لها فيه أكبر الأثر .

و" الصيرفى " أيضا شاعر يكره الدعاية والشهرة و يحب العزلة عن الناس ويجد فى الهدوء راحته ولكنه يود لو ملأ الكون من حوله نغما وشعرا وهذا العزوف عن دنيا الناس جعله شاعرا متجدد الصلة بالطبيعة وأسرار الكون مشدودا أبدا إلى الظلال

٣٢

والنور والأنغام والأصداء والأزهار وقد جاء إحساسه بالغربة لنزوع روحه الظامئة إلى هذا المجهول والمطلق فى العالم الجديد الذى أراده بعيدا عن دنيا الناس ، ولقد استحال هذا الإحساس إلى روافد فى نفسه الشاعرة تغذى روحه المتأملة المتصوفة كما تغذى شعوره ووجدانه وخياله وصوره الشعرية جميعا مما كان له عظيم الأثر فى تكوين تأملاتهاالشعرية فى تلك القصائد التى تتجلى فيها هذه التأملات على نحو ما سبق و من ذلك على سبيل المثال لا الحصر فى ديوان " الألحان الضائعة " (الحيارى) ص ٢٩ و (اللغز) ص ٣٠ ، و (تحت ضوء القمر) ص ٥٧ ، و (الشجرة العارية) ص ٥٣ و(البسمات الساحرة) ، و (التائه) ص ٣٢ ، و (موت عزرائيل) ص ٤٥ ، وغيرها . وفى ديوان " الشروق " (النور الجديد) ص ١٠ ، و (إلى المعبد) ص ٢٠ ، و (الحرمان) ص ٢٣ ، و (بين اللهب) ص ٣٦ ، و (وحدة العمر) ص ٦١ ، و (أنا) ص ٦٨ ، و (الحيرة) ص ٧٠ . وفى ديوان " رجع الصدى " من مجموعة دواوين " صدى ونور ودموع " (إلى وكرك يا قلبى) ص٨ ، و (موجتان) ص ٧٧ ، و(فتنة) ص ١٠٥ ، وسواها . وفى ديوان " حول النور " (عندما تحترق الفراشة) ص ١٢٩ ، و(تفاؤل) ص ١٣٧ ، و(غيرة) ص ١٥٥ ، و(مثال وتمثال) ص ١٦٨، وغيرها . وفى ديوان " نوافذ الضياء " (الشاعر) ص٥ ، و(زهرة التيوليب) ص ٩ ، (ابتهالة) ص ٤٣، وسواها . وفى ديوان " زاد المسافر " (حب الحياة) ص ٢٩ ، و(قصاندى الأخيرة) ص ٢١ وسواهما . وفى ديوان " صلواتى أنا " ، (الزنبق) ص ١٣ وغيرها . وفى ديوان " دموع وأزهار " من مجموعة " صدى ونور ودموع " (طيف السلام) ص ٢٩٣ وسواهما . وفى ديوان " النبع " (أنا البحر) ص ٥٦ . وفى ديوان " عودة الوحى " (لقاء على الرمل) ص ٩٣

٣٣

إن مثل هذا الشعر يؤكد إن سيرة حياة أى شاعر هى شعره وما خلا ذلك مجرد هوامش ومن رأى الدكتور " شوقى ضيف " إننا حين نتحدث عن (حياة شاعر) فإننا لا نعنى التصوير لنفسه وقدرته ومشاعره وأفكاره فحسب وإنما نحاول أن نرسم شخصيته الأدبية بارائها حتى تصبح الصورة لصاحبها معبرة عنه ".[٥١] ولقد كانت مدينة (رأس البر) مصدر إلهام شاعرنا " الصيرفى " وكثيرا ما ألهمته أعذب الأشعار وكثيرا ما سقته من فيضها الأكواب فى قصيدته (أنا البحر)

أنا والبحر شاعران بالأناشيد عامران
غير أنى نظمتها من سلام ومن حنان
وهو يلقى نشيده فى ضجيج وفى اضطغان
أنا أكسو عرائسى بالجديدات من معان
وهو يزهو بعريها فى ابتذال وفى امتهان
.....
أنا للأفق حاضن وهو للشط فى احتضان
ليس لى من شواطئ ثم للبحر شاطئان[٥٢]

تلك القصيدة التأملية التى تبين شخصية شاعرنا ذات الطبيعة الصامتة والنفسية الطيبة المتأملة كان للبحر أثر فى تكوينها وتلوينها.

وكتب الأستاذ "إسماعيل مظهر " دراسة حول ديوان (الشروق) قال فيها: [عرفت " الصيرفى " الشاعر هادئ الطبع نير الديباجة سهل الأسلوب بين المعنى، قوى الروح فى هدوء، ثائر الأحاسيس فى صمت بالغ.[٥٣]]

وقال عنه الدكتور " أحمد زكى أبو شادى " : " حسن كامل الصيرفى" شاعر من أنبغ شعراء الشباب ومن أظهر راودهم وقد خبرت " الصيرفى" خبرة الأديب للأديب والصديق للصديق فشعرت أنه من أجدر الشعراء بأن يردد

وما كان شعرى من نظيم أصوغه ولكن شعرى أن أكون أنا الشعرا[٥٤]

ويقول : شعر " الصيرفى " وحدة لا تتجزأ وإن الإعزاز الذى نوجهه إلى شعره نستمده كذلك من شخصيته الشاعرة المتسامية المحبوبة تلك الشخصية الحساسة الناضجة التى تأسرنا بتعاليمها فى صمتها البليغ حينما تدوى الدنيا حولها.[٥٥] ويقول أيضا : " ولقد انتظمت مدرسة أبولو شعراء ممتازين ولكنها تفخر كل الافتخار " بالصيرفى " وشعره فهو ثروة للشعر المصرى الحديث والشعر العربى عامة وكيف لا يكون ذلك وهو الجامع ما جمع من الطلاقة البديعة والخيال الرائع والموسيقى المستحدثة فى نظام هو نظامه لا يقلد فيه أحدا، شاعر مبتدع بعيد الخيال رومانتيكى النزعة غالبا رمزى أحيانا." وأضيف متأملا دائما .

ويقول الدكتور " محمد مندور " فى موسيقى " الصيرفى " : " وأما عن تجديد " الصيرفى " فى موسيقى الشعر وما سماه (خروجه عن الذوق العروضى طوعا للذوق الموسيقى) كعدم التزام القافية الموحدة واصطناع القافية المزدوجة فى الكثير من قصائده وعدم التزام الوحدة العروضية للبيت كما تحجرت فى تقاليد الشعر العربى القديم والتحرر فى توزيع التفاعيل فى وحدات مختلفة الكم دون اخلال بالموسيقى التى فطر عليها " الصيرفى " وكانت خطوته الأولى للتدريب على نظم الشعر كان فى مستهل حياته ينظم الألفاظ فى أسماط موسيقية دون أن ينظر إلى معناها أو تركيبها اللغوى، كل هذه التجديدات فى الموسيقى ... أستوحى فكرتها من الموشحات الأندلسية التى كان يدمن التأمل فيها...."[٥٧].

ويسترسل قائلا: " والذى لا شك فيه أنه قد جدد تجديدا أصيلا فى موضوعات الشعر وروحه وموسيقاه ولكنه لم يقصد هذا التجديد ولا افتعله ولا رسم له خطة نظرية أو نقدية وإنما جاء تجديده وجاءت أصالته تحت عبارة الكاتب الفرنسى " أندريه جيد "

{ إن الأصالة الحقة هى تلك التى تجهل نفسها}[٥٨]

ويقول الدكتور " محمد سعد فشوان " : " إن استغراقه فى تأملاته وأشجانه وإيثاره العزلة عن الناس وتغنيه بآلامه وأوصافه النفسية يشير إلى شاعر رومانتيكى من طراز جديد." [٥٩]

وهكذا كان شعر " الصيرفى " أغنية عذبه من أغانى الحياة الندية وتعبيرا من تعبيراتها الشعرية الممتزجة بنزعته التأملية المتصوفة التى أصبح لتأمله المغرق فى السبح بأجواء بعيدة عن عالمنا دخل كبير فى جُل شعره.

وصفوة القول : أن شاعرنا " حسن كامل الصيرفى " جدير بعكوف الباحثين والنقاد على آثاره لتوفيتها حقها من الدراسة وبإعادة طبع جميع أعماله ما نشر منها وما لم ينشر - فى ديوان تحت عنوان (الأعمال الكاملة) - لأننى أرى أنه لم يظفر حتى الآن بما ظفر به قرناؤه من الدراسات المستفيضة.

ـ{ الهوامـــش }ـ

١) شعراء ودواوين (أحمد مصطفى حافظ) ص٩٧ الهيئة المصرية العامة ١٩٩٠م

٢) حيث رتبت القصائد وفق تاريخ صدورها

٣) ديوان (الألحان الضائعة) ص٢٥: ٢٧ م التعاون ١٩٣٤.

٤) شعراء معاصرون (مصطفى عبد اللطيف السحرتى، ميلاد ناجى) ص٢٣ـ القاهرة١٩٦٢

٥) حسن كامل الصيرفى وتيار التجديد فى شعره د/ محمد سعد فشوان ص ١٨٠م الكليات الأزهرية ١٩٨٥م.

٦) الشعر والتأمل ترجمة د/ محمد مصطفى بدوى ، سهير القلماوى ص ١٧٨ المؤسسة المصرية العامة .

٧) قصيدة (رجع الصدى) من ديوان (صدى ونور ودموع) ص ١٧، ١٨ ط الأولى ١٩٦٠م الشركة العربية.

٨) الديوان نفسه ص ٢٨ : ٣٠

٩) الديوان نفسه ص ٦١ : ٦٣

١٠) الديوان نفسه ص ٥٧ : ٦٠

١١) فى الأصل (والحيارى هنا ضحايا قضائك) ولكنى وجدت الشاعر صوبه فى الهامش بقلمه(والحيارى على الرضا بقضائك) ، وانظر / حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره د/ محمد سعد فشوان ص ١٨٢.

١٢) ديوان (الألحان الضائعة) ص ٢٩

١٣) ديوان (صدى ونور ودموع) ص ١٢٩ ، ١٣٠

١٤) الإنسان السادى هو الذى يتلذذ بآلام الآخرين.

١٥) ديوان (الألحان الضائعة) ص٥٨ : ٦٢ ـ هذه مناجاة فى صورة نداء.

١٦) ديوانه ص٩١ ، ٩٢ ـ أنظر شعراء معاصرون لـ(مصطفى عبد اللطيف السحرتى) ، و(هلال ناجى) ص٢٧.

١٧) انظر شعراء معاصرون ص٢٧،٢٨

١٨) الشعر والتأمل تأليف " روستريفور هاملتون " ترجمة د/ محمد مصطفى بدوى ، د/ سهير القلماوى ص١٦١.

١٩) وجدت هكذا فى الديوان و الأصوب (فردد لى)

٢٠) ديوان (صدى ونور ودموع) ١٣٧ : ١٤١ قصيدة (تفاؤل)

٢١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث (مصطفى عبد اللطيف السحرتى) ص٤١ م/المقتطف ، المقطم١٩٤

٢٢) ديوان (الألحان الضائعة) ص٧٥ ، ٧٦

٢٣) (فارو مما شئت) وفى النسخة المطبوعة (فارتو ما شئت) - انظر (حسن كامل الصيرفى) تيارات التجديد فى شعره د/ محمد سعد فشوان ص١٩٥

٢٤) الديوان نفسه ٧٦ ،٧٧

٢٥) ديوان (نغمان ونسمات) ص٦ مخطوط

٢٦) حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره د/ محمد سعد فشوان ص١٣١

٢٧) ديوان الشروق ص ٥٧ ، ٨٥ دار المعارف بمصر .

٢٨) الديوان نفسه ص٦١ ، ٦٧

٢٩) الديوان نفسه ص٦١: ٦٧

٣٠) الديوان نفسه ص ٧٠ ، البهيم : المحير

٣١) حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره ص١٨٧

٣٢) المرجع السابق ص١٨٧

٣٣) ديوان (الألحان الضائعة) ص١٠٢

٣٤) الديوان نفسه ٥٧ : ٦٢

٣٥) ديوان (صدى ونور ودموع) ص٢٩٣ وفى مقدمة قصيدة الشاعر ديوان (نوافذ الضياء) ص٥

٣٦) ديوان (صلواتى أنا) ص١٣

٣٧) ديوان نوافذ الضياء ص ٦ ، ٧

٣٨) بلال : هو أبو عبد الله بن رباح الحبشى أحد مؤذنى الرسول" صلى الله عليه وسلم" عام ٤٠ ق.م وتوفى ٢٠ هـ بدمشق

٣٩) ديوان نوافذ الضياء ص٤٥، ٤٦

٤٠) ديوان (زاد المسافر) ص١٩، ٢٠

٤١) ديوان (الألحان الضائعة) ص٥٣، ٥٤

٤٢) حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره ـ د/ محمد سعد فشوان ص١٢٠

٤٣) ديوان (الألحان الضائعة) ص١٠٠

٤٤) الديوان نفسه ص٣٣ : ٤٢

ـ انظر الشعر المصرى بعد شوقى د/ محمد مندور ص١٧٤ الحلقة الثانية دار نهضة مصر ٨٥

٤٥) حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره ص ١٩٣

ـ الرمزية فى الأدب العربى لدرويش الجندى.

ـ الرمزية والأدب العربى لأنطون غطاس.

ـ فى الأدب العربى الحديث والمعاصر د/ أحمد عبد الغفار عبيد.

٤٦) ديوان (الألحان الضائعة) ص٣٣ : ٤٢

٤٧) الديوان نفسه ص٩٧

٤٨) الديوان نفسه ص٤٥ : ٤٧

٤٩) ديوان (زاد المسافر) ص ٢٢ ، ٢٣

٥٠) الشعر والتأمل ترجمة د/ محمد مصطفى بدوى ، ود/ سهير القلماوى ص ٢٢٨ ، ٢٢٩

٥١) فى النقد الأدبى / شوقى ضيف ص٦٨ دار المعارف ١٩٨١

٥٢) ديوان " النبـــع " ص٥٦ ، ٥٧

٥٣) تصدير كتاب حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره دأ/ محمد سعد فشوان ص٣٩

٥٤) شعراء العرب المعاصرون د/ أحمد ذكى أبو شادى ص ٥٧

٥٥) المرجع السابق ص٥٧

٥٦) المرجع السابق ص٥٧ : ٦٧

٥٧) الشعر المصرى بعد شوقى د/ محمد مندور ص١٦٩ الحلقة الثانية.

٥٨) المرجع السابق ص١٧٠

٥٩) فى النص الأدبى الحديث د/ محمد سعد فشوان ص١١٤ م/ الجامعات ١٩٨١

****

***

المصادر والمراجع

(١) شعراء العرب المعاصرون د/ أحمد زكى أبو شادى ط الأولى دار الطباعة الحديثة١٩٥٨م

(٢) فى الأدب العربى الحديث والمعاصر د/ أحمد عبد الغفار عبيد ـ م/ الحضرى ١٩٩٩م.

(٣) شعراء ودواوين ـ أحمد مصطفي حافظ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠م.

(٤) الشعر والتأمل ـ " وستريفور هاملتون " ترجمة محمد مصطفى بدوى ، سهير القلماوى ـ المؤسسة المصرية العامة ـ بدون

(٥) في النقد الأدبي د/ شوقي ضيف ط ٦ دار المعارف ١٩٨١م.

(٦) حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره د/ محمد سعد فشوان م/الكليات الأزهرية ١٩٨٥

(٧) فى النص الأدبى الحديث د/ محمد سعد فشوان ط الأولى م/ الجامعات ١٩٨١م.

(٨) الاتجاه الرومانسى فى شعر حسن كامل الصيرفى د/ محمد زكى العشماوى دار المعارف٨٩م

(٩) مدرسة أبولّو الشعرية في ضوء النقد الحديث د/ محمد سعد فشوان دار المعارف١٩٨٢م

(١٠) الشعر المصرى بعد شوقى ح٢ د/ محمد مندور دار نهضة مصر سنة ١٩٥٨م.

(١١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث / مصطفى عبد اللطيف السحرتى م/المقتطف ـ المقطم ١٩٤٨م.

(١٢) شعراء معاصرون / مصطفى عبد اللطيف السحرتى ، هلال ناجى ـ القاهرة ١٩٦٢م.

(١٣) * ديوان (الألحان الضائعة) م/ التعاون سنة ١٩٣٤م.

(١٤) ديوان (الشروق) دار المعارف ١٩٤٨م.

(١٥) دواوين (صدى ونور ودموع) مجموعة تضم ثلاثة دواوين هى (رجع الصدى) ، (حول النور) ، (دموع وأزهار) ط الأولى ١٩٦٠ م/ القاهرة العربية للطباعة.

(١٦) ديوان (زاد المسافر) دار المعارف ١٩٨٠م.

(١٧) ديوان (عودة الوحى) دار المعارف ١٩٨٠م.

(١٨) ديوان (صلواتى أنا) دار المعارف) ١٩٨١م.

(١٩) ديوان (نوافذ الضياء) دار المعارف ١٩٨٢م.

(٢٠) ديوان (النبـع) دار المعارف) ١٩٨٢م.

(٢١) ديوان (نغمات ونسمات) مخطوط .

(*) رتبت الدواوين حسب تاريخ صدورها